المدارس العليا للتقوى
درر الأحكام في شرح أركان الإسلام
((٢))

فضيلة العلامة العرفاني الكبير
محمد أمين شيخو
قدس الله سره

الصلاة

ثاني المدارس العليا للتقوى

استنباط أوقات الصلاة من آيات كتاب الله الكريم

جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

فضيلة العلامة الإنساني الكبير

محمد أمين شيخو

قدس الله سره

المدارس العليا للتقوى

درر الأحكام في شرح أركان الإسلام

(٢)

الصلاة

ثاني المدارس العليا للتقوى

جمعه وحققه المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

ابن محدث دمشق المرحوم الشيخ محمد الديراني

فهرس

الصلاة

ثاني المدارس العليا للتقوى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

تعجب وأعجب ويعجب كل إنسان غربي بماهية الصلاة، ما سرُّها وما حقيقتها!. فصورتها حركات وسكنات وتلاوات مبتدأة بالتكبير منتهية بالتسليم يقوم بها المسلم خمس مرات بكل تعاقب ليلٍ ونهار.

وما من امرءٍ غربي يشاهد مسلماً يصلِّي إلاَّ ويعجب من حركاته ويسأله عما يفعل في حركات صلاته، وماذا يستفيد، ولم يقوم بتلك الحركات فيأتيه جواب المسلم: أمر تعبُّدي به نحن مأمورون وعلينا التنفيذ فيزداد تحيُّراً، أو يكون جواب المسلم بأن الصلاة تعبير واعتراف لله بخضوعه، فيعجب الغربي قائلاً: أولا يكفي الاعتراف بخضوع الإنسان لربِّه مرةً بالحياة كما تعترف الدول ببعضها.. إذن فلِمَ تكرار الاعتراف وهل يجب على الإنسان أن يستيقظ باكراً عند الفجر ليعترف، أوَ لم يعترف سابقاً!.

ثم وعند الظهيرة والعمل على أشُدِّه يترك عمله أو وظيفته ليعترف ثانياً فلا تمضِ بضع ساعات إلاَّ ويُدعى للاعتراف بربِّه عصراً، وبعدها بقليل بعد غروب الشمس، وبعد برهةٍ عند العشاء؟. أليست هناك ثقة متبادلة بين العبد وربه حتى يشك المسلم بنفسه وبنزاهة اعترافه، فيساورهُ الوسواس بأنه شك بصحة اعترافه ليعود كل يومٍ إلى تكرار اعترافه!. أمر عجيب وغريب.

كما يتساءل المرء المفكِّر أبهذه التقاليد التي لا نلمس فائدة منها ولا مردود، وهذه الحركات الغريبة التي يستنكرها كل ذي فكر ونظر لمْ يدرك حكمتَها تفوّق صحابةُ رسول الله ﷺ على الخلائق بأسرها، وفتحوا البلادَ وقادوا العباد للإنسانية والمحبة والسلام، بل قلبوا الحضارات الكبرى من يونانية ورومانية وزرادشتيه وغيرها إلى الإسلام، ولِمَ لا يفعل أبناؤهم المسلمون ما فعله السابقون، ما دامت هذه الصلاة التي يصلُّونها هي نفس صلاة الصحابة الكرام ومن تابعهم بإحسان فهُجرت الأوثان ورفرفت رايتهم على بلاد الهند والصين؛ بالرحمة التي أفاضوها على العباد، والسلوكية الإنسانية السامية التي شدهوا بها قلوب الأمم؟!.

لقد أجابنا على هذه الألغاز علامتنا الجليل قُدِّس سرّه وفتح ما أُغلق علينا، وختم بالحق بما عرف من الحق، فجلا كل الشُبه والغموضَ وكشفَ اللثام عن حقيقة الصلاة وسرِّها العظيم، إذ بيَّن بأن لكلِّ شيء صورة وحقيقة.. صورة الصلاة التي نصلِّيها هي نفسها التي كان يصلِّيها سيد الخلْق ﷺ وصحبه الكرام ومن تابعه من المؤمنين بإحسان.

أما حقيقتها وسرُّها العجيب فإليك هي: الصلاة للمؤمن هي صلة نفسه بربِّها وارتباطها الوثيق بنور خالقها المتوارد عليها بواسطة الشفيع ﷺ بارتباطها النفسي به برابطة التقدير والحب والتعظيم، حيث تسري لنفس المؤمن المصلِّي

الحياة القلبية من الحي جلَّ كرمه، فحياة الجسد بالغذاء والشراب والهواء بينما حياة النفس بالصلاة التي فيها الغذاء والنماء للقلب المؤمن، فنحن نتمتَّع بصلتنا بالفاخر من الطعام اللذيذ، ونغذي أعيننا بروعات مناظر الطبيعة والورود والأزهار الفتَّانة مع عبير الاستنشاق من روائحها الشذية المترعة بالألوان الجذَّابة الأخَّاذة، والمياه الدفَّاقة الرقراقة والنسيم العليل في المنتزهات الاصطيافية، كما نشعر بالحياة الحلوة اللذيذة الطيبة بضم أطفالنا ومن نحب إلى صدورنا بقبلات المحبة الودية الصافية، وكل ذلك بأجْمُعه أثر من آثار خالق الجمال ومبدع كل روعة وجلال وجمال.. فكيف إذا اتصلت نفس المؤمن الحق بمبدع الجمال وممدِّ الأكوان فكم يغمرنا من مشاعر ونعيم وأذواق وافتتان وبوارق نورانية تذهب ببصيرتنا إلى ربِّ كل كمال، كم سنقطف من بدائع الحب الصافي العالي الشريف، حيث تستغرق نفوسنا ببحورٍ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!.. كم من المشاهدات السامية العليّة المتفوقة فوق ما تناله العوالم بأسرها من ربِّ الجمال والفضيلة والكمال، وكم ستتشرب نفوسنا من فضائل وكمالات وينمسح عنها بالنور الإلهي كل بؤس وتعب وشقاء، وكم تزول من نفوسنا من الأدران، ومن صفات الجبن والضعف والشح وغيرها، مما كانت ستخفض من شأننا عند الله وعند الناس، بل كم سيسري إلى نفوسنا من علومٍ ومعارفَ دونها معارفُ العالَمين.. ذلك

غيضٌ من فيوضات الصلاة الحقيقية على كل نفس آمنت بذاتها واختيارها ورضاها بربها من ثنايا بدائع آياته الكونية نتيجة حساب المرء حسابَ الموت وخشيةَ سوءِ المنقلب بعده، اللهم لا عيش إلاَّ عيش المصلِّين.

من هنا ندرك افتتان المنشدين المؤمنين برسول الله ﷺ بقصائد محبةٍ وتعظيمٍ وتوقير تفوق الوصف بسبب ما نالوه بالصلاة بواسطته من بحور فضل الله وكرمه الذي دونه كل إكرام وعطاء، فهو ﷺ الطريق القلبي إلى الله، حيث تتشرَّب النفوس الحق والحياة من الله.

هذا.. وبمقدار ما تنال النفس من ربِّها من فيوضات الكمال والكسب القلبي والخيرات الحقيقية فستفيض بها أعمالاً عاليةً برحمة متدفقة نالها المصلِّي المؤمن بصلاته من معين حضرة الإلَه العظيم، فالله تعالى ينظر إلى ما وقر في نفس المصلِّي من مكاسب من لدنه تعالى فيهيء له أعمالاً صالحة متناسبة مع نوالات نفسه.

والعكس صحيح فكلما قدَّم المؤمن من أعمال البرِّ والخير والإحسان وصالحات الأعمال التي ترفع شأنه عند الله وعند الناس كلما ابيضَّ وجهه فأقبل بصلاته على ربِّه وهو واثق من رضاه تعالى عنه وتسمو صلته بربِّه وتتسامى، فقيام الصلاة يتم بطيبات الأعمال، والله طيب ولا يقبل إلاَّ طيباً. هنالك وبالصلاة الحقيقية يتسامى المؤمن ويرقى رقيّاً متتالياً بكلِّ صلاة

ويتغذى غذاء أهل الجنَّات بالوجبات اليومية الخمس فهو ومنذ تفتيحه على الحياة من النوم يلجم زيغان وضلال النفس بالصلوات الطيبات المباركات من الله، وكذا فإذا ما استغرقت في مخالب الدنيا الدنية أو كادت؛ فهو يضحّي بكلِّ عمل دنيوي مهما علا وطغى ليغذي نفسه عند الظهيرة عند شدة الانهماك بدنياه ليصفِّي نفسه وينقِّيها ويزوِّدها بالمكرمات من ربِّ الأرض والسموات الذي فضله المديد أكبر من مكاسب الدنيا وما فيها والله أكبر، وكذا بقية الوجبات ذات الأكل الدائم والتجلِّي العلوي الظليل إذن:

الصلاة معراج المؤمن بها يسمو وبها يعلو..

الصلاة غسل القلوب وشفاؤها، نعيم المؤمن ومكاسبه وسر الحياة، بها تسري الحياة للنفوس فتنعشها وعافية الأبدان ووقايتها من كافة الأمراض..

فالصلاة كمال الإنسانية وبهاؤها ولا حياة بلا صلاة فهي تنظِّف القلوب من خبثها وأدرانها، بها النعيم كله والشفاء النفسي والجسدي التامَّان الأكملان، والقوة والبطولة والشجاعة التي لا تبارى، وبها تتم التضحيات النبيلة السامية وخوارق الأعمال الإنسانية الكبرى، منها النور والحياة، والبهجة والبصيرة الكشَّافة لكلِّ نبل وسمو متسامق متعال متشاهق.

بها تتم المشاهدات الشريفة العليَّة للحضرة القدسية، للإله العظيم ولأسمائه تعالى الحسنى، كيف لا ورائدها المصطفى النور الباهر الكاشف لعظمة جلال

جمال مبدع كلِّ بديع وواهب الجمال لروائع بدائع كافة المخلوقات.. فيا سعادة المؤمن المتقي بالصلاة بحبيب الله نور أنوار الإلّه ومنبع الجنَّات العلى وذلك بشهود كمالاته تعالى ونوال فضله وإحسانه وإغداقات فيوضات الإكرام والإنعام ونوال أقصى المنى.

الصلاة نور النفوس في البرزخ والحياة الحقيقية السارية بعد الموت وبها النجاة من أهوال الموقف ومن النيران المحرقة بالآخرة.

الصلاة وفاء وتطهير من الذنوب وشفاء من العيوب وبها تُنال الجنَّات وتركها جفاء وموت للقلوب.. فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ.

الرقي الإنساني لا يُنال إلاَّ بالصلاة، فبها الحياة كلها والنجاح والفلاح.

فصلُّوا ولا تملُّوا يا أهل السعادة والحُظوة والهناء والنجاة من كل بلاء.. أنتم يا من سلكتم مسالك الإيمان فطلَّقتم الدنيا وعفتم الفتنَ.

تارك الصلاة لا خير فيه.. بالصلاة تزدهي الحياة المترعة بالمكرمات والنجاة من كل قبيح الآفات والصفات، وبها معارج القدس، وهي مهبط التجلِّيات الربانية والفتوحات السنية الأبدية والأخلاق العليَّة والفوز بمجلى الحق المنير.

طوبى للمصلِّين المتصلين بذي الجلال والإكرام بواسطة قدسية روحانية نفس المصطفى وكفى..

طوبى للمصلِّين المؤمنين وحسن مآب..

الصلاة عماد الدين بها يبلغ المؤمن كلَّ مقاصده النبيلة ويُغفر له ما سبق بالصلة العلية بالله، فمن تركها "ففي نفسه المظلومة" قد هدم الدين وخسر اليقين وكان في نهاية عمره من الخاسرين لما أعدَّه تعالى للمصلِّين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تقديم المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

الصـــــــــلاة

ثاني المدارس العليا للتقوى

والآن وبعد أن تكلمنا عن شهادة أن لا إلَه إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله. وبعد أن عرفنا المراد من هاتين الشهادتين وبعض ما ينطوي تحتهما من معان ننتقل إلى الكلام عن الصلاة التي أشار إليها حديث: «**بني الإسلام على خمس..**» في قوله ﷺ: «**وإقام الصلاة**».. فنقول:

إذا وصل الإنسان إلى شهادة أن محمداً رسول الله وآمن به ﷺ، وصدّق أن كل ما جاء به هو الحق من عند الله، واستسلم لهذا الرسول الكريم كل الاستسلام فعندئذٍ يستطيع أن يتعلم منه أصول الصلاة التي أمر بها الله، وأن يجني الثمرة من هذه الصلاة، وأن يكون الرسول ﷺ إماماً له في هذا المجال ومعلماً وهادياً ومرشداً وسراجاً منيراً.

ولعلك تقول: هل تختلف الصلاة التي علَّمها الله تعالى رسولَه وأمره أن يعلِّمنا إياها عما هو موجود الآن في بطون الكتب مما أثر عنه ﷺ وما تواتر عنه بخصوصها من أقوال وأفعال، منها الفرض والواجب ومنها السنن والمستحبَّات؟. وجواباً على ذلك نقول: لكل شيء صورة وحقيقة، وصورة الصلاة إنما هي موجودة في كتب الفقه والأحاديث الشريفة، ويستطيع أن

يقوم بهذه الصلاة الصورية وأن يمارسها البرّ والفاجر والمؤمن والمنافق، وجميعهم يستطيع بحسب الصورة أن يقوم بعمل واحد لكن التباين والتفاوت إنما يكون بحسب الحقائق فلكل امرئ في صلاته وجهة هو مولِّيها ولكلٍ قربٌ من خالقه بحسب إيمانه وارتباطه بإمامه ولكل مُصَلٍّ فهم وإدراك، وشهود وعقل. وقد بين ﷺ أن من الناس من يكتب له من صلاته النصف ومنهم الربع ومنهم العشر ومنهم من لا يستفيد من صلاته قليلاً ولا كثيراً.. ويشير إلى ذلك ﷺ: «**وليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها**»[1].

على هذا فالصلاة التي علَّمها الرسول ﷺ أصحابه، والتي أمرنا بها الله تعالى بواسطة هذا الرسول الكريم يجب أن تثمر في نفس المصلِّي عقلاً والعقل هو روحها وحقيقتها ومقاس فائدة المصلي منها. ومن لم يعقل من صلاته شيئاً فلا صلاة له ولم يؤدّها ورُبَّ قائمٍ ليس له من قيامه إلاَّ السهر، ولا بدَّ لنا والحالة هذه من أن نفصِّل في هذه النقطة بعض التفصيل لا سيَّما والصلاة هي عماد الدين ورأس الأمر كله فنقول: بما أن الصلاة هي صلة النفس بخالقها وارتباطها الوثيق بنور ربها، وبما أن العقل هو روح الصلاة وثمرتها لذلك كان لزاماً علينا أن نعرف المراد من العقل، وماذا نعقل في صلاتنا والأصول الواجب اتّباعها حتى نصل إلى العقل. ونبدأ ببيان المراد من العقل فنقول:

---

(1) كنز العمال: ج٣، ص٣٨٢، ج ٧٠٥٠.

المراد بالعقل هنا العقل النفسي وهو ما توعيه النفس وما تختزنه فيها من بعد أن شهدته ورأته، أما ما يعقله الإنسان في هذه الصلاة التي نحن بصددها فيدور حول أمرين اثنين: فهو يعقل طرفاً من الكمالات الإلٓهية عقلاً نفسياً من بعد أن آمن بها وعقلها فكرياً وإلى جانب ذلك يعقل سرَّ التشريع الإلٓهي وبعض ما انطوت عليه الأوامر التي أنزلها الله تعالى على رسوله في القرآن الكريم، إذ يكون عقل الكمالات الإلٓهية بمشاهدة المصلِّي طرفاً من هذه الكمالات شهوداً نفسياً، إذ يرى العظمة الإلٓهية والعدل ويشهد الرأفة والرحمة والعطف والحنان والفضل والإحسان وغير ذلك مما انطوت عليه الأسماء الإلٓهية وهنالك تتمثَّل نفسه هذه الكمالات وتوعيها وتغدو مستقرة فيها. أما عقل الأوامر الإلٓهية فتكون برؤية ما انطوت عليه من خير، فيرى المصلي مثلاً عندما يقرأ آيات الحجاب فائدة الحجاب وما فيه من خير للمرأة ذاتها وذويها، والمجموعة البشرية كلِّها. وعندما يقرأ الآيات التي تنهى عن الخمر والميسر يرى ما فيها من الأذى وما ينجم عن تعاطيها من مضرَّات. وكذلك الأمر بالنسبة للميْتة وما ينشأ عن أكلها من أمراض وعاهات. ويرى الفائدة من الصيام والصلاة والحج والزكاة، إلى غير ذلك من الأوامر التي يعقلها المصلِّي بما يسمعه في صلاته من آيات القرآن. فهو لا يسمع بآية إلاَّ ويرى ما انطوت عليه من معانٍ رؤية متناسبة مع مقدار ما هو فيه من وجهة إلى خالقه، وما هو عليه من صلة وإقبال وذلك ما

نعنيه بعقل الأوامر الإلٓهيّة.

ومن لم يعقل في صلاته طرفاً من الكمالات الإلٓهيّة، ومن لم يعقل ما في الأوامر الإلٓهيّة من خيرات، ومن لم يعقل شيئاً مما تنطوي عليه آيات القرآن الكريم التي يتلوها في الصلاة، فليس بعجيب أن تُلَفَّ صلاتُه كما يلف الثوب الخَلِقُ ويضرب بها في وجه صاحبها إذ أنه لم يفد منها شيئاً. أما الطريق إلى العقل فإنما يكون برفقة ذلك الإمام والاقتداء به وهو في الحقيقة السيد الأعظم ﷺ. ومن لم يُصلِّ مقتدياً بذلك الإمام فليس يستطيع أن يصل إلى العقل ولو أنه صلَّى في اليوم مئة ركعة، ولو أنه قام يصلي الليل كلَّه ولعلك تسأل عن السبب وتعجب من هذا القول فأقول: "**بعين الرأس ترى الأشياء بالأنوار المعروفة أما الحقائق فلا تراها النفس إلاَّ بنور الله برسول الله ﷺ**".

وإذا كان العقل نتيجة لما يحصل عليه المصلي من شهود ورؤية نفسية فكيف تستطيع هذه النفس أن تشاهد كمال الله وليس لها نور تشاهد به هذا الكمال؟. أم كيف تنكشف لها المعاني وليس لها سراج منير يريها هذه المعاني ويبيِّن لها ما في الأوامر الإلٓهية من خيرات!. لذلك فهذا المصباح من لوازم الرؤية وهذا السراج المنير من لوازم وضروريات من يريد أن يصلَ إلى العقل. وما ذاك المصباح والسراج إلا رسول الله ﷺ. قال تعالى مشيراً إلى ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ

بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾[1].

وما أمر الله تعالى رسوله بالاتجاه شطر المسجد الحرام إلا لتكون نفسه مقبلة عليه تعالى من ذلك المكان لنستطيع نحن أن نولِّي وجهنا شطره حيثما كنَّا وفي أي مكان وُجدنا فنجعله لنا في إقبالنا على الله إماماً وليكون لنفوسنا سراجاً مضيئاً، وذلك سر الأمر الإلّهي ولُبابه. وهكذا فالاتجاه إلى الكعبة الشريفة واستقبال هذه القبلة ركن من أركان الصلاة. ومن لم يصلِّ جامعاً نفسه فيها مقبلاً على الله بصحبة هذا الإمام فلا يعقل من صلاته شيئاً لأنه إنما يصلِّي وحيداً فريداً، وبذلك يطمع الشيطان فيه، ويهرع إليه فيملأ قلبه بالهواجس والوساوس والخطرات، ورسول الله ﷺ يقول: «**عليكم بالجماعة وإيّاكم والفُرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد**»[2].

وفي حديث آخر: «**فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[3].

قال تعالى في سورة آل عمران (١٠٣): ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا . . ﴾: أي عنه ﷺ.

وبناءً على ما قدَّمناه نقول: نحن في صلاتنا واستقبالنا الكعبة لا نعبد الكعبة ولا نتَّجه إلى الأحجار بل إنَّما نتجه من ذلك المسجد الحرام إلى الله

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٤٥-٤٦).

(٢) صحيح الترمذي: /كتاب الفتن/ رقم الحديث (٢٠٩١).

(٣) مسند الإمام أحمد: /كتاب مسند القبائل/ رقم الحديث (٢٦٢٤٢).

ونحن لا نعبد رسول الله، بل إنما نتَّخذه لنا في صلاتنا إماماً وفي نفوسنا سراجاً منيراً، تدخل نفوسنا متى أرادت الإقبال على الله من ذلك المكان فتجد إمامها به فتقتدي به وتقبل على الله بمعيَّته وهو لها نِعمَ الإمام وخير رفيق. وتستنير بالنور الإلّهي الساطع على نفسه ﷺ بسبب إقباله على الله ويريها بعض ما استكنَّ في أوامره تعالى من الأسرار والخيرات.. وهذا يوضِّح لنا سرَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(١).

فما أمرنا الله تعالى بالصلاة على هذا الرسول الكريم إلا لنصل نفوسنا به فتدخل على الله بمعيَّته وتستنير بذلك النور الإلّهي الساطع على نفسه. ومن لا صلة له برسول الله، ومن لا محبة له بهذا الرسول الكريم ﷺ فليس بمستطيع مهما حاول وجهد أن يصلي الصلاة التي أمر بها الله، وهو محروم من ذوق الإقبال على الله، أعشى البصيرة عن رؤية كمال الله وهو ليس بمدرك شيئاً مما يقرؤه من آيات. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ..﴾(٢).

أقول والاتجاه إلى الله تعالى من طريق الكعبة ما هو بالأمر الجديد الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ عن لسان الله، بل إنما جعلها الله تعالى قبلة العالمين منذ عهد سيدنا إبراهيم ﷺ. وقد ذكر لنا تعالى أن سيدنا إبراهيم ﷺ إنما كان يعلِّم الناس

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٥٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٣٩).

من قبل قواعد الاتجاه إليه تعالى من طريق هذا البيت. فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[(١)].

وليست الكعبة قبلة لسيدنا إبراهيم فحسب بل إنما هي أول بيت وضع للناس منذ أن أوجدهم الله تعالى على سطح هذه الأرض، وإن شئت فقل من لَدُن آدم ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . ﴾[(٢)].

فالكعبة إذن: هي الوسيلة في قيام وجهة الأنفس إلى خالقها في الصلاة وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة. قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ . . ﴾[(٣)].

ومشروعية ذلك كما رأيت أن تجتمع الأنفس في كل زمان برسولها المتوجِّهة نفسه من ذلك المكان إلى الله. أما وقد شرَّف الله تعالى العالم ببعثة سيِّد ولد آدم فهو ﷺ إمامنا وإمام العالمين. وروح الصلاة أن تُقبل على الله بمعيَّته. وتعرج نفسك إلى الله تعالى برفقته. ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور. أما وقد عرفت سر الإتجاه إلى الكعبة المشرّفة والطريق إلى العقل فلنذكر لك بشيء من التفصيل أصول الصلاة التي يحصل لك بها العقل فنقول:

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٢٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٩٦-٩٧).

(٣) سورة المائدة: الآية (٩٧).

الـــوضـــــــــوء

أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم إذا نحن قمنا إلى الصلاة أن نغسل وجوهنا وأيدينا إلى المرافق وأن نمسح برؤوسنا ونغسل أرجلنا إلى الكعبين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

ولبيان طرف من المراد من هذا الأمر الإلٓهي نقول:

من الثابت أن هناك علاقة قوية وارتباطاً وثيقاً بين النفس والجسد وإذا كان نشيطاً نشطت النفس واستيقظت وتفتَّحت مسامعها لما يُلقى عليها في الصلاة من أوامر الله المنطوية في آيات الذكر الحكيم.

وعلى العكس إذا كان الجسد إثر النوم أو التعب الجسدي فاقد النشاط خمدت بالتالي النفس وكان من العسير عليها أن تفقه أسرار الأوامر الإلٓهية وأن تعي كلام الله بالصلاة، وبما أنَّ هذه الأعضاء الواردة في الآية الكريمة

[1] سورة المائدة: الآية (٦).

مواطن لنهايات آلاف مؤلَّفة من الأعصاب ولذلك فإن غسلها بالماء يوقظ الجملة العصبية كلها وينبِّه كافة الأعصاب، وحيث أن النفس كما نعلم مركزها الأساسي في الصدر وأشعَّتها سارية عن طريق الأعصاب في سائر أنحاء الجسم لذلك فإن النفس بهذا الغسل تستيقظ وتنشط وتغدو مستعدة لسماع كلام الله وفهم المراد الإلّهي، فضلاً عما يعود به هذا الوضوء من نشاط الدورة الدموية في الجسم وإزالة ما تراكم على أطرافه من أدران إن وُجدت، فالغاية من الوضوء "النشاط" حصراً ليس إلاَّ.

ولعلَّك تقول : إذا كانت الآية الكريمة لم تفصِّل في باقي الأعمال التي كان رسول الله ﷺ يقوم بها أثناء الوضوء والتي تعارف الناس على تسميتها بسنن الوضوء وآدابه، فهل معنى ذلك أن الرسول أضاف شيئاً من عنده تمَّم به آية الوضوء، أم أن جميع ما أُثر عنه ﷺ من أقوال وأفعال كل ذلك إنما هو موجود في القرآن الكريم ومنطوي تحت آياته؟.

وجواباً على ذلك نقول: ما يكون لرسول الله ﷺ وهو الأمين على كلام الله المبلغ لرسالات ربه أن يضيف شيئاً من عنده ويزيد على كلام الله. وإن نحن قلنا أن السنة النبوية جاءت متمِّمة لكلام الله، وإن نحن ثبتنا ذلك ورضيناه فمعناه أن كتاب الله جاء ناقصاً، وأن السنَّة جاءت لتلافي هذا النقص وهذا مما يخالف المنطق الصحيح ولا يرضى به الفكر السليم، إذ ما

يكون لبشر أن يتمّم كلام الله وحاشا لله وهو صاحب الكمال أن ينزِّل على رسوله شريعة ناقصة تحتاج لإتمام، فضلاً عن أن القول بذلك يخالف كل المخالفة ما جاء به صريح القرآن قال تعالى في محكم كتابه، عن رسل الله الكرام: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقوله الكريم: ﴿. . .مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ. . ﴾[2].

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تثبت لنا أن الله تعالى ما فرَّط في الكتاب من شيء وكلامه تعالى إنما جاء منطوياً على كل ما يلزم هذا الإنسان وكل ما يحتاجه في الحياة، فكيف تستطيع أن تقول أم كيف تجرؤ على قول أن السنة النبوية وسائر ما ورد عنه ﷺ من أحاديث أنها متممة لنقصٍ سهى عنه الله فجاء الرسول وأكمله، وهو تعالى منبع الكمال ولا تأخذه سنة ولا نوم.

فالحقيقة إذن أنَّ كل ما ورد عن الرسول الكريم إن هو إلاَّ محض توضيح وبيان لما انطوى تحت آيات الله من معاني غفل عنها من غفل وأدركها ﷺ بما امتاز به من عظيم الإقبال على الله وشديد صلته بالله قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۞ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (٢٧).

(2) سورة الأنعام: الآية (٣٨).

(3) سورة النحل: الآية (٤٣-٤٤).

وزيادة في إيضاح هذه النقطة نقول:

إذا نحن رجعنا إلى آية الوضوء وجدناها منطوية على جميع السنن التي أُثرت عن الرسول ﷺ في هذا الخصوص.

فالرسول ﷺ كان يغسل أعضاء الوضوء ثلاثاً لتعليم البدو المتأخرين اجتماعياً يدلك بعد المرة الأولى العضو المأمور بغسله لينحلَّ ما تراكم عليه من غبار أو خلافه.

وفي المرة الثانية يزول عن العضو بالغسل ما انحل.

وفي المرة الثالثة لا يبقى عليه أثر من درن أو نحوه.

لقد فَهِمَ الرسول ﷺ سرَّ الأمر الإلهي من كلمة (**اغسلوا**) وعَلِمَ أن المراد من الغسل النشاط والنظافة إن لزمت لا مجرَّد تبلل العضو بالماء لأن كلمة (**اغسلوا**) تستدعي تنظيف العضو بالنسبة لبعض القبائل الموغلة في البوادي العفراء. والتنظيف إنما يكون بالصورة التي أدَّاها ﷺ.

أما إذا بلَّ الإنسان العضو بالماء وصب عليه الماء مرة واحدة فلا يعدُّ ذلك غسلاً بالنسبة لهؤلاء البدو، وعليه فهذا التنظيف والنشاط المرفق هو لبعض القبائل البدوية والتي كان أفرادها متخلِّفون بالحياة الحضارية وكانت ظروفهم المعاشية الصعبة في أعماق صحراء الجزيرة العربية ولندرة الماء وافتقاده في كثير من الأحيان يعمدون إلى التيمُّم فتتَّسِخ جلودهم، فرسول الله ﷺ أُرسل رحمةً

للعالمين.. للبدو وللحضَر، ولكن حقيقة الوضوء وحكمة فرضه عموماً ليْستا أبداً وقطعاً للنظافة لأن النظافة لها الاستحمام، لكنه فقط للنشاط لأن تيقُّظ الأعصاب ونشاط النفس يقتضي تكرار الغسل ثلاثاً كما أشرنا قبل قليل «**قال الله من ثلاث**» حديث شريف.

رجوعاً إلى علم النفس العتيد نجد إثباتاتٍ علميةٍ وتجاربَ عمليةٍ لا مجال أبداً لنقضها تكشِفُ اللثامَ عن أن من قوانين النفس الفطرية أن الحقيقة لا تثبت يقيناً فيها إلاَّ بتكرار الطلب ثلاث مرات فلا تنساها النفس وتثبت فيها، وهذا الأمر يتجلَّى حين توصي الأطفال الأبرياء بأمرٍ أو جلبِ أغراضٍ مرةً أو مرتين فالطفل ينسى المطلوب، ولكن في حال التكرار ثلاثاً فلن ينسى الطفل المطلوب منه.

هذا ثابت قطعاً بعلم النفس ولكن رجوعاً إلى القرآن كتاب الله المقدَّس نجد هذا القانون مشاراً إليه وساري المفعول كما «**قال الله من ثلاث**».

فقد ثبتت حكمة الحقائق الثلاث التي طبَّقها سيدنا الخضر بحضرة سيدنا موسى ﷺ.

كذا فالطلاق للفراق الأبدي بالثلاث "إلاَّ بحال الزواج من زوج ثاني" هذا الطلاق بلا رجعة يتم بالثلاث كما هو معلوم[1].

---

[1] انظر بحث الطلاق "البحوث المجيدة. رقم (٢)" للعلامة الكبير محمد أمين شيخو.

كذلك تثبت حقيقة الإيمان ويشرق بنفس السالك بالحقِّ للحقِّ بثلاث بمدلول الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى..﴾[1].. والتي مجموعها ثلاث.

كذا بمدلول الآية الكريمة: ﴿..فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ..﴾[2].. والتي بمجموعها تكون ثلاثاً.

كذا بإنذار سيدنا صالح ﷺ لثمود ﴿..ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[3].

وعلامة بشرى سيدنا زكريا ﷺ بقوله تعالى: ﴿..قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[4].

وبآية أخرى: ﴿..ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً..﴾[5].

فقانون ثبات أيِّ أمرٍ بالنفس تكراره ثلاثاً فيثبت، فقانون النفس من ثلاث، كذلك كان رسول الله ﷺ يكرِّر الجمل الهامة ثلاث مرات لتستقر في نفوس السامعين.

هذا وقد توصَّل أبونا إبراهيم أبو الأنبياء بنفسه إلى اليقين بربِّ اليقين من

(١) سورة سبأ: الآية (٤٦).
(٢) سورة الملك: الآية (٣-٤).
(٣) سورة هود: الآية (٦٥).
(٤) سورة مريم: الآية (١٠).
(٥) سورة آل عمران: الآية (٤١).

ثلاث: "الكوكب والقمر فالشمس".

وقد عزَّز تعالى الرسل بسورة (**يس**) برسولٍ ثالث، حتى أن كفارة اليمين ثلاثة أيامٍ صياماً وغيرها من البراهين الصادقة.

فرسول الله من إله العرش مقتبسٌ علماً هــداهُ لنـــا نوراً من الأزل

لذا سنَّ لنا بما يوحيه الله له بتكرار الاستنشاق وغسل الفم وغسل الأعضاء بالوضوء ثلاثاً بغية تحقيق النشاط للنفس من ثنايا الجسم.. فدين الإسلام دين قوةٍ ونشاط فبتمرير الماء على كلِّ عضو أثناء الوضوء ثلاث مرات كافٍ تماماً ووافٍ ليُوقظ الجملة العصبية كلّها وتنبيه كافة الأعصاب، عندها تنشط النفس لا سيما بأيام الصيف الحارة وبعد التعب وإثر الاستيقاظ من النوم، فبالماء ثلاث مرات يذهب التعب والكسل والميل للنوم إثر الاستيقاظ ويصرفها أصلاً وينهض بالنفس بالصلاة وصلاً.

وهكذا فكلمة ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ﴾ تقتضي الغسل ثلاثاً وينطوي تحتها الدلك وتخليل أصابع اليدين والرجلين عند غسلهما وتحريك الخاتم، وكذلك الترتيب والموالاة إلى غير ذلك من السنن التي نستطيع أن نعدّها وردت في الآية صريحة بالنسبة لصاحب الذوق السليم والإدراك الصحيح والفطنة العالية لأن الإيجاز بالنسبة لهذا الإنسان هو عين البلاغة ومحض البيان.

وليس من البلاغة في شيء أن تفصِّل في مثل هذه الأمور البديهية. وعلى وجه المثال نقول: لو أن امرءاً طلب من ابنه الرشيد ذي الذوق والإدراك السليم أن يسقيه ماءً فهل من المعقول أن يقول له ضع الماء في الكأس، واغسل الكأس قبل ملئه غسلاً جيداً نظيفاً، ولا تناولني كأس الماء إلا بيمناك وباعد أطراف أصابعك عن حافة الكأس عندما تقدّمه، وليكن الماء نظيفاً بارداً إلى غير ذلك من البديهيات، أم أن كلمة (اسقني) تقتضي جميع هذه التفصيلات وأن كل ذي ذوق سليم وفطنة لا يفعل إلا وفق تلك الأصول المذكورة.

والآن بعد أن قدَّمنا ما قدَّمناه نستطيع أن نقول أن جميع ما أُثر عن الرسول ﷺ من أقوال وأفعال منها السنن المؤكَّدة والمستحبَّات وجميع ما كان يتجنبه من مكروهات ومفسدات سواء في الوضوء والصلاة، أو الصوم والحج والزكاة، إلى غير ذلك من الأوامر والتشريعات الإلَهية كل ذلك إنما ينطوي مندرجاً تحت كلام الله تعالى فما فرَّط الله تعالى في القرآن من شيء.

وبما أن رسول الله ﷺ هو أقرب الخلق إلى الله وأعلمهم بكلام الله وأشدهم إقبالاً عليه وأعلاهم بسبب إقباله هذا فهماً وفطنة للمراد الإلَهي لذلك أنزل الله تعالى كتابه على هذا الإنسان العالي الفطن الذي لم يضارعه ﷺ أحدٌ في دقَّة الفهم الناشئة عن ذلك الإقبال العظيم.

وأمرنا تعالى أن نتابع هذا السيد الفَطِن والرسول الكريم فقال تعالى:

﴿ . .وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا . . ﴾[1].

وإن آية: ﴿ . .مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ . . ﴾[2].

تقرِّر أن السنن النبوية كلها منطوية في القرآن الكريم وأن الأحاديث الشريفة جميعها مأخوذة من كتاب الله. كلما ازداد الإنسان إقبالاً على الله وقرباً من ذلك الجناب العالي استطاع أن يدرك سرَّ الأحاديث الشريفة ويعرف مصادرها من القرآن وهنالك يقدّر هذا الرسول الكريم ويشيد بعالي فهمه وفطنته، وسامي إدراكه وعظيم إقباله فيحبّه ويجلّه ويزيد إيماناً وتصديقاً برسالته، ولعمري ذلك هو طريق الفقه الصحيح وتلك هي أصول الفقه، وهكذا فالفقه لا يكون إلا عن طريق الإيمان، وعلم أصول الفقه إنما يكون بالإيمان الصحيح والإقبال العالي على الله. وكذلك الأمر بالنسبة للحديث الشريف فلا يدرك صحيحه من باطله وموضوعه إلا من سلك طريق الإيمان، والمؤمن المقبل هو وحده ذو الدراية بصحيح الرواية، وهو وحده الذي يستطيع أن يعرف أصول تصحيح الأحاديث، وما سوى ذلك من دراسات واستحفاظ أشكال وطرق بصحيح الأحاديث إن هو إلا تخبُّط أعشى يتخبَّطُ في الظلمات ولا يستطيع أن يعرف صحيحاً من موضوع، كما لا يستطيع أن يعي أسرار ما جاء به ﷺ من أقوال وأفعال. فإن أنت أردت أن

[1] سورة الحشر: الآية (٧).

[2] سورة الأنعام: الآية (٣٨).

تتعلم أصول الحديث الشريف، وإن أنت أردت أن تعرف مصادر السنة النبوية من القرآن الكريم وأن تتعلم أصول الفقه والتأويل الصحيح فاسلك طريق الإيمان الذي أشرنا إليه من قبل والذي سلكه أصحاب رسول الله الكريم، فكانوا علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبيَاء، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِم وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، ذِلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1].

والآن وبعد أن تكلمنا عن الوضوء وأثره في إعداد النفس للصلاة والوقوف بين يدي الله ننتقل إلى أعمال أخرى نؤديها قبل الصلاة فنقول: لابدَّ للمؤمن إذا أراد أن يقف في الصلاة المفروضة من:

---

(١) سورة الجمعة: الآية (٢-٤).

الأذان والإقامـة

يسمعهما من غيره أو يقوم بهما بنفسه وللأذان والإقامة مكانتهما الظاهرة لدى من أراد الصلاة.

والأذان: معناه إيذان وإعلام بحلول الوقت الذي آن للنفس أن تقف بين يدي خالقها تستمع إلى آياته ودلالته التي يقتضي أن تسير عليهما في الحياة، كما تدفع عنها بهذا الوقوف بين يدي الله ما تسرَّب إليها من انشغال بمصالح الحياة ومهمّاتها، فتنسجم وتعود إلى إقبالها على الله، فتعود لها الطمأنينة بقربها من ذلك الجناب العالي مصدر حياة الكون ومبعث حياة الوجود. وتأوي إلى ملاذها إذا أحاطت بها الكروب وموئلها إذا ادلهمت بها الخطوب، فتقف بين يديه تعالى مقبلة عليه، فتتجدّد لها الحياة الطيبة وتحط في بابه جل جلاله ما أنقض ظهرها من الأثقال والأحمال. وتتوهج شعلة الإيمان فيها من بعد أن ذكَّرتها ألفاظ الأذان بما استقر فيها من قبل من تعظيم وإجلال وشهود الإحسان من صاحب الإحسان، خالق الأرض والسماء. وهكذا ففي الأذان دعوة وإعلام وذكرى يتذكر بها المؤمن مشاهدات شهدتها من قبل نفسه وأَقَرَّ بها قلبه. فتراه يردّد مع المؤذن ما يتلوه على مسمعه من كلمات، فإذا به بهذه الذكرى وذلك الترديد يدخل في

كمالات ذلك الشهود السابق ويعرج في معارج القدس من جديد.

يقول المؤذن: **الله أكبر.. الله أكبر** وتطرق هذه الكلمة مسامع النفس فتذكّرها بشهودها السابق لجلال الله وعظمته وتهيّجها هذه الذكرى وترجع بها إلى ذلك الشهود الجميل الذي كانت شاهدته من قبل، فإذا بها تسمو وتتسامى وقد شاقها ذلك القول إلى اللقاء. فإذا ما قال المؤذن **الله أكبر الله أكبر** وأعادها ثانيةً قالت معه مصدِّقة وردَّدت معبرة عن شهود جديد خاضت غماره فتقول الله أكبر الله أكبر وهي تسبح في لجج ذلك الجلال الإلّهي. وهي ترى أن لا نهاية لذلك الجلال فمهما شهدت من تلك العظمة فهو سبحانه أعظم وأوسع ومهما رأت من جلال الله وعظمته فهو تعالى أكبر وأكبر.

وينتقل المؤذن إلى كلمة: **أشهد أن لا إلّه إلا الله**.. يقول المؤذن ذلك معبّراً عن شهوده، أنه يشهد أن لا مسيِّر لهذا الكون ولا مدبِّر لشؤونه إلا الله. فبيده تعالى وحده سيْر السموات والأرض وما فيهما، وبيده وحده أمور الكون كله، وبتدبيره وحده يسير ما في الكون كُلٌّ ضمن اختصاصه وفي حدود وظيفته. إنه تعبير يعبّرُ به المؤذن عن مشاهدته النفسية لمعنى هذه الكلمة ويقولها المؤمن من بعده مردداً ألفاظها فيتذكر هو أيضاً إيمانه بها ويتذكَّر مشاهدته السابقة. ويعود إليها المؤذن فيلفظها ثانيةً فإذا بالمؤمن وهو يقول: أشهد أن لا إلّه إلا الله

يدخل نفسياً في مجال جديد وشهود جديد يقول هذه الكلمة وهو يشاهد جديداً وتنغمس نفسه مستغرقةً في ذلك الشهود، متقدمةً في هذا المضمار أشواطاً جديدة أوسع بكثير مما كانت عليه من قبل.

فإذا قال المؤذن: **أشهد أن محمداً رسول الله** وكرَّرها انطلقت نفس المؤمن سارية إلى البيت الحرام مجتمعة برسول الله ﷺ مقبلة برفقته على الله فتكون له بذلك صلة وحياة.

فإذا أتبع ذلك المؤذن بقوله: **حيَّ على الصلاة**.. سمعت ذلك منه وهي تشعر وترى أن لا حياة لها ولا حياة للخلق إلا بالصلة بالله فتقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويكرر المؤذن وتكرر معه.

ثم يتابع فيقول: **حيَّ على الفلاح**.. فتقرُّ له وهي ترى أن سعادتها موقوفة على ما تقوم به من أعمال البرّ والفلاح في هذه الحياة، فتلتجئ إلى الله طالبة منه أن يمدّها بالعون على ذلك وهي تقول، لا حول ولا قوة إلا بالله، ويشارف المؤذن أن يختم الأذان فيقول: **الله أكبر الله أكبر** فتزداد إقراراً بالعظمة والرحمة التي لا حدَّ لها ولا انتهاء.

فإذا قال المؤذن: **لا إله إلا الله**، عاد هذا المؤمن المستمع فدخل في ذلك الحصن الحصين ورأى أنه وأن الكون كله في قبضة هذا الرب العزيز الرحيم، نواصي الخلق كلهم بيده وهو وحده المسيِّر يسيِّرهم فيما يعود عليهم بالسعادة والخير.

وأخيراً يختم المؤذن بالصلاة على رسول الله ﷺ اعترافاً بفضل هذا السيد العظيم الذي كان دليلاً لتلك الأنفس إلى الله وسبباً في قربها من الله وشهودها لجلال الله ووصولها إلى ما وصلت إليه من سعادة مدى الحياة. وذلك طرفٌ مما تشعر به النفس المؤمنة إزاء الأذان. أمَّا

الإقامة: فليس المراد منها ألفاظاً تتلى ولا نهوضاً من بعد جلوس كما يتبادر لأذهان طائفة من الناس إذ تراهم قعوداً لا ينهضون إلاَّ إذا سمعوا كلمة **قد قامت الصلاة** وهنالك يقفون منتظمين في صفوفهم وما وعوا شيئاً مما يتلى عليهم. الإقامة في حقيقتها إيقاظ مشاعر النفس وعودة بها إلى الطريق الذي مرَّت به خلال الأذان لتعود بها هذه الذكرى إلى مشاهداتها فلعلَّها انصرفت من بعد الأذان بعض الشيء عن هذه الوجهة فإذا ما وقفت بين يدي الله للصلاة فسرعان ما تعود بها ألفاظ الإقامة إلى ذلك المجال. مجال الإقبال على الله والدخول في ذلك الجناب. وما أسرع ما تعود بها الذكرى إلى ذلك الشهود العالي شهود الرحمة والعظمة والجلال والقدرة **والله أكبر الله أكبر** مما شاهدت هذه النفس من هذه المعاني لتلك الأسماء وتعود النفس بكلمة **أشهد أن لا إلَه إلا الله** تذكر شهودها للتسيير الإلَهي لملكوت السموات والأرض، وتنغمس بهذا التكرار في تلك الرؤية وذلك الشهود، وتشتبك هذه النفس المؤمنة من جديد بنفس رسول الله ﷺ عندما تذكّرها

كلمة **أشهد أن محمداً رسول الله**، وتستشفع بالصلة به إلى الله فإذا هي قائمة بين يدي الله، مستغرقة في تلك المشاهد لتلك الأنوار الإلّهية منغمسة في لجج الجمال والكمال الإلّهي فتعبّر عن أذواقها وتشعر بكلماتها عما يجري في قراراتها وتقول **حيَّ على الصلاة حيَّ على الصلاة** فما الحياة إلا بالصلة بالله **حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح**، وما الحياة بمتحصِّلة إلا لمن قام بعمل الخير والإحسان وحيث أن هذا المؤمن قد تحقق بما يقول وقدَّم من عمل الخير والإحسان ما جعله يخوض غمار هذه الصلة ويقف هذا الموقف العالي بين يدي بارئ الكون وخالق الأرض والسموات وحيث أن نفسه أضحت في ذلك الجناب العالي تستمتع بشهود ذلك الجلال الإلّهي وتنعم برؤية ذلك الجمال، فهنالك تعبر عن ذلك بقولها: **قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة**: أي لقد أصبحت نفسي الآن في صلة مع الله. لقد قامت في نفسي تلك الصلة بالله، لقد أصبحت منغمساً في لجج الإقبال على الله والشهود لجلال الله، **الله أكبر الله أكبر** مما أشاهده وأراه إذ لا حدَّ لعظمة وفضل هذا الرب الكريم ولا انتهاء **لا إلّه إلا الله**.

ذلك طرف وبعض الشيء مما يتذوّقه المؤمن أثناء الأذان وإقامة الصلاة، وليس الوصف كالذوق وليس البيان والشرح كالمشاهدة والعيان ولكلٍ درجات ومشاهدات وأذواق بحسب ما هو فيه من حبّ لخالقه وتقدير وإيمان.

والمحروم كل المحروم من حُرِمَ الصلة بالله، والخاسر من ترك الصلاة وما تشرَّفت نفسه في يوم من الأيام بالوقوف بين يدي الله والإقبال عليه تعالى بصحبة رسول الله ﷺ. إنه المسكين يلهو بالدنيا وأكدارها وكدوراتها وينغمس في رذائلها ودنيء شهواتها ويحرم نفسه من نفائس الإقبال والتمتُّع بشهود أسماء ذي الجلال.

إنه ينصرف إلى المخلوق ويدع الخالق، إنه يتمسك بالأكدار ويدع الجواهر واللآلئ إنه الأعمى، أعمى القلب، وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. إنه ميت القلب وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات، فيا خسارة إنسان لحق الدنيا وترك منابع السعادة وموارد الإيمان، آن الآن لهذه النفس من بعد أن أذَّنت هذا الأذان وأقامت الصلاة هذه الإقامة وإن شئت فقل آن لهذه النفس من بعد أن قامت صلتها بالله أن تقف بين يدي ربها للصلاة التي أمرها بها تسبِّح بحمده وتناجيه وتستمع إلى أوامره تعالى ونصائحه فتشترك بالتبعية في تلقي نصائح خالقها وأوامره كيما تستنير بها في حياتها وتسير عليها، ففيها مناسكها، وما يجب أن تطبقه في أعمالها، وهي نبراسها ونورها.

ومن لم يصلِّ هذه الصلاة التي قدَّمنا لها هذا التقديم، ومن لا يعي ولا يعقل في صلاته شيئاً مما يتلى من آيات الله، ظلَّ في جهالة، وظلت نفسه

واقفة عند حدٍ واحد لا تتقدم في طريق معرفة أوامر الله خطوة واحدة، بل إنما هو ناقل لما يراه في الكتاب وما يسمعه من غيره غير عاقل لها.

أما هذا المصلي وعندما يكبّر تكبيرة الإحرام فإنه يشير بذلك إلى إلقائه الدنيا وما فيها من مشاغل وأعمال وراءه ظهرياً، ملتفتاً بكلِّيته إلى الله جامعاً نفسه على الله.. تراه يبدأ أول ما يبدأ بدعاء الثناء، فهو يقول: (**سبحانك اللهم**) وما كلمة (**سبحانك**) إلاَّ تعبير لفظي عن سبح النفس في عظمة ربها تلك العظمة التي لا تتناهى. وما كلمة (**اللهم**) إلاَّ تعبير عن مشاهدة النفس للتسيير الإلٓهي لسائر الكائنات، فإنها بكلمة (**سبحانك اللهم**) تعبر عن سبح نفسي مقرون بشهود للتسيير الإلٓهي لسائر ما في الكون، ورؤية أن هذا الكون بجميع ما فيه من عوالم سائر كله بإرادة هذا الرب العظيم، فلا نهاية والحالة هذه لجلال الله ولا حدَّ له ولا انتهاء. وتفيد كلمة (**وبحمدك**) إقراراً من النفس بأن هذا التسيير الإلٓهي لجميع ما في الكون، هذا التسيير كلَّه مبني على رحمة وفضل، فهو سبحانه يُحمد على هذا التسيير، ونتائجه كلها فضل على هذا المخلوق وإحسان وخير، ولا يصدر من هذه الذات العليّة إلا محض الإحسان والخير. لقد شاهدت هذه النفس المؤمنة التي وقفت تصلي هذه الصلاة طرفاً من هذا الحمد في التسيير الإلٓهي، ورأت من قبل شيئاً منه فقامت تعبِّر عن مشاهدتها بقولها (**سبحانك اللهم وبحمدك**)، فإنها تقول

ما أعظم جلالك أيها الرب العظيم، وما أعظم فضلك أيها المسيّر الحكيم، إن كل ما في الكون سائر بأمرك، وإن كل ما تسيِّره بما تُحمد عليه إنه يسير سيراً مقروناً بحمدك.

أما كلمة (**وتبارك اسمك**) فهي تعني أن اسم الله هذا الاسم الذي يشير إلى الذات العليَّة، هذا الاسم العالي، وهو كلمة "**الله**" ينطوي تحته معانٍ كلُّها خير وكلها فضل وإحسان لسائر العباد والمخلوقات، ففيها البركة على العباد وفيها الخير المستمر على سائر المخلوقات.

وإن كلمة (**تبارك**) تعني تتالي الخير الإلّهي وتتابعه على المخلوقات. وكلمة (**اسمك**) تشير إلى ما ينطوي تحت كلمة (**الله**) من معان وأسماء. إنها تشير إلى اسم الرحمن الرحيم، والحكيم العليم، والقوي القادر، المقسط العادل.. إنها تتضمن سائر الأسماء الإلّهية التي انطوت تحت كلمة (**الله**) كلها خير وفضل وإحسان. ذلك بعض ما نفهمه من كلمة (**وتبارك اسمك**).

وذلك حال النفس تعبر عن إيمانها ومشاهدتها لما يتتالى على الخلق من خيرات هذه الحضرة الإلّهية تتالياً متتابعاً لا ينقطع طرفة عين أو لحظة من اللحظات، ثم ينتقل المصلي إلى كلمة (**وتعالى جدك**)، وكلمة وتعالى جدك مأخوذة من الجد تقول جد فلان في الأمر أي انصرف إلى إتمامه وإنجازه انصرافاً تاماً لا يدع معه أدنى خلل أو نقص فيه.

وهكذا فالله جل جلاله متواصلٌ خلْقُهُ وإمداده لا ينقطع، وخلقه إنما يأتي دوماً على أبدع وجه من الكمال فما من نبات ولا حيوان وما من تنظيم لشؤون هذا الكون وما من مخلوق من المخلوقات إلا ويتم خلقه وتتواصل العناية الإلَهية به على أكمل وجه وبصورة لا يستطيع أحد أن يجد فيه نقصاً أو خللاً فضلاً عن أن يدرك لكماله نهاية. هذه المخلوقات كاملة من كل ناحية تامة من كل وجه لا يستطيع الإنسان أن يجد نهاية لكمالها في حسن ترتيبها ودقة صنعها وإذا الكون كله في كماله وإذا كل مخلوق من مخلوقاته وإذا كل عضو من أعضاء لأي مخلوق كان وإذا وظائف الأجهزة والأعضاء وإذا الترابط الوظيفي بين هذه الأجهزة والأعضاء، وإذا الكون كله مهما دقت أجزاؤه ومهما عظمت وكثرت مخلوقاته كل ذلك جاء خلقه ويجيء على التوالي تاماً كاملاً يعجز الإنسان أن يرى لكماله نهاية وكيف يدرك لهذا الكمال نهاية وهو نسيج يد القدرة الإلَهية؟

ولذلك يعبر المصلي عن طرف من مشاهداته لهذا الكمال الإلَهي في إيجاد هذه المخلوقات بقوله: (**وتعالى جدك**) أي تعالى خلقك عن أن أجد لكماله أو أن يجد أحد لكماله نهاية فلا نهاية ولا حدَّ لكمال الخلق الذي قامت عليه هذه الموجودات.

ويختم المصلي دعاء الاستفتاح بقوله (**ولا إلّه غيرك**). فعلى الرغم من سعة هذا الكون وعلى الرغم من تطلّبه تسييراً دقيقاً وعلماً واسعاً وقدرة لا متناهية وحكمة بالغة فليس له من إلّه معك فأنت المسير لشؤونه وحدك وأنت العليم بما تتطلبه سائر مخلوقاتك وأنت الواسع الحكيم وأنت الإلّه القدير والعزيز الرحيم وهذه بعض معاني وأذواق ذاقتها نفس هذا المؤمن خلال مسيره في طريق الإيمان فقام يعبر عن أذواقه ومشاهداته لما وقف بين يدي خالقه للصلاة ذكَّره بها وأعاده لشهودها كله كلمة (**الله أكبر**) الذي افتتح بها الصلاة فذكر بهذه الكلمة وتذكَّر ولا يتذكَّر إلا من تذكَّر.

ثم يبدأ المصلي صلاته بكلمة (**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**) وتدخل نفسه بهذه الكلمة الكعبة البيت الحرام والحصن الحصين وهنالك تجتمع برسول الله ﷺ إمامه وإمام العالمين فيقتدي بهذا الرسول الكريم وينصت إليه فإذا به ﷺ يقول لهذا المقتدي بل لكل من ائتم به ووقف يصلي معه (**بسم الله الرحمن الرحيم**).

أي يا عبد الله إنما أبلغك باسم هذا الإلّه الرحمن الرحيم وأتلو عليك ما سأتلوه عن لسانه.

وهكذا فكلمة (**بسم الله الرحمن الرحيم**) إنما هي خطاب لك أيها المصلِّي من رسول الله ﷺ يخاطبك بها معرفاً ومبيناً أنه إنما يتلو عليك ما يتلوه

باسم الله وعن لسان الله وهو بيان لك من الله وينصت هذا المصلِّي لرسول الله ﷺ ويصغي إليه وتتفتح مسامع نفسه لما سيتلوه عليه فإذا به ﷺ يتلو كلام الله قائلاً: ﴿الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم ۞ مالك يوم الدين﴾.. ونوجز ثم نفصل فنقول:

يريد الله تعالى أن يعرفك في الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث بأنه تعالى يُحمد على تسييره لهذا الكون فما من حادثة تحدث ولا مصيبة أو ضائقة تلم وتنزل ولا عسر أو يسر ولا مرض أو شفاء وما من هم أو غم ولا نصرة أو خذلان وما من واقع يقع في هذا الكون إلا وهو منه تعالى محض الخير والفضل والإحسان فهو سبحانه يحمد على كل حال وهو تعالى يستحق الحمد وله الحمد في كل ما يسوقه لهذه المخلوقات، أدرك طرفاً من ذلك أولوا العلم والأبصار ولو انكشف الغطاء لما اخترت إلا ما اختاره الله لك وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. وكيف لا يُحمد الله تعالى على ما يسوقه لعباده وهو الرحمن الرحيم؟ وهل يعاملك الرحمن إلا بما فيه السعادة لك وهل يسوق لك هذا الرب الرحيم إلا ما فيه خيرك؟

أما الآية الثالثة وهي كلمة **(مالك يوم الدين)** فهي تبيّن لك أن هذا الرب الرحيم الذي كل فعله لعباده إحسان وخير هو المالك يوم القيامة وليس

لأحد من الخلق يومئذٍ إرادة ولا اختيار في عمل يتقرب به إلى الله. وإذا كان قد منحك الله في هذه الحياة الدنيا حُريّة الاختيار لتقوم بالأعمال التي تكون سبباً في سعادتك يوم المعاد فقد انقضى في ذلك اليوم العظيم وقت العمل ومضى وسيكون يومئذٍ الحساب وسيكون الجزاء على الأعمال وليس لأحد إذ ذاك أن يختار غير ما يستحق وليس يُجزى إلا على ما قدَّم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وتفصيلاً لمعنى هذه الآيات الثلاثة نقول: أما الآية الأولى وهي كلمة (**الحمد لله رب العالمين**) فإنما تنطوي تحتها معان جمّة فهي تعرفنا أن الله تعالى "**رب**".. وأن هذه الربوبية عامة فهو سبحانه وتعالى رب العالمين ثم هي تعرفنا أيضاً بأنه تعالى هو المسير لأمور هذا الكون وهي تعرفنا بأنه يحمد على تسييره وأن الحمد مقصور عليه فله الحمد وحده وبصورة عامة إنما تعرفنا بأن رب العالمين المسير لما في الكون من إنسان وحيوان أو أي شيء إنما يحمد على كل حال وأن كل فعله وسائر ما يسوقه لمخلوقاته فضل وإحسان وخير.

ونعرفك بكلمة (**رب**) فنقول: الرب هو المربي مأخوذة من ربَّى وأصل الفعل ربا بمعنى زكا ونما وكما تقول ربا الزرع أي: نما وتشدِّد الباء فتقول: ربَّى فلان الغنمة أي خصَّها بالعناية فجعلها بسبب هذه العناية تنمو وتستمر في الحياة فأمدها بما يلزمها من مأكل منوَّع مُغذِّي وشرب موافق روي وعني

بإيوائها في مأوى خاص مهوّى وأسامها في الأرض ترعى في الفلاة متعرضة لنور الشمس والهواء النقي.. وبصورة عامة قدّم لها سائر ما يتوقف عليه دوام وجودها وحياتها واستمرار نمائها.

فالتربية إذاً تعني الإمداد بما يلزم لدوام الحياة واستمرار الوجود والنماء وقد أصبح من السهل علينا أن ندرك معنى التربية لنبتة أو لزرع، ومعنى تربية طفل أو شخص، ومن اليسير علينا أن ندرك المراد من قولنا المعلم مربٍ وأن ندرك مجال تربيته والنواحي التي يخصها بعنايته. وكذلك الأمر بالنسبة للمرشد والرسول وبصورة أعم نستطيع أن ندرك طرفاً من تربية الله تعالى لهذا الإنسان وعنايته به وإمداده إياه بما يلزم منذ أن كان جنيناً في بطن أمه حتى أضحى طفلاً ضعيفاً وما كان يرافق هذه الطفولة من العناية الإلّهية في تسخير الأم المشحون قلبها بالعطف والحنان إلى أن أصبح إنساناً سوياً ورجلاً كاملاً ثم دوام هذه التربية واستمرارها عليه حتى آخر لحظة من لحظاته.

ويضيق بنا المجال ولا تتسع بطون الكتب لشرح معنى كلمة (**رب**) ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نجد لهذه الكلمة نهاية غير أن ذلك لا يمنعنا من تقريب القارئ من معناها بعض الشيء فلعله إذا هو فكَّر أدرك طرفاً من هذه التربية ووجد نفسه على شاطئ بحر خضم منها لا يدرك لها قراراً ولا تُحَدُّ بحدٍ وهنالك يعظِّم المربِّي ويقدِّره وتخشع نفسه له وتعلم أن الحمد كله له.

أرأيت تربيتك في بطن أمك إذ جعلك تعالى في مستودع محفوظ من كل أذى وضرر ذي حرارة مناسبة وجو معتدل يأتيك رزقك رغداً بأصول ونظام تحار له العقول وأنت تسبح في الماء لا يضرك شيء من الأشياء يساق لك الدم صافياً نقياً والغذاء كاملاً وتخلق خلقاً من بعد خلق حتى تغدو إنساناً سوياً.

فمن الذي كان يعتني بتربيتك آن ذاك؟. أهي أمك أم أبوك؟. ومن هو المربي لك؟. في ذلك الطَوْر؟. أليس هو الله تعالى صاحب العطف والحنان؟. هل جلست تفكر بعنايته بك في هذه الفترة من حياتك وهل جلب انتباهك هذا الدور؟. فعندما نزلت إلى هذه الدنيا وواجهتْ عيناك النور من هو الذي كان يحضر لك اللبن سائغاً رويّاً في ثديي أمك؟. من هو الذي كان يبدل لك معاييره يوماً من بعد يوم؟. أمَّن هذا الذي أودع في قلب أمك العطف عليك والحنان وجعلها تحزن لحزنك وتفرح لفرحك وتمرض لمرضك وترضى أن تضحي براحتها راغبة في سبيل تأمين راحتك؟. والآن وقد بلغت أشدك وأصبحت رجلاً هل فكرت في من يقدّم لك صنوفاً وألواناً وأنواعاً متنوعة من الأغذية والثمار؟. ومن ينزِّل لك من السماء الثلوج والأمطار؟. ومن الذي سلك لك في الأرض الينابيع والأنهار(1)؟. ومن الذي جعل لك الأرض، هذه الكرة السابحة في الفضاء تدور حول نفسها فيتولد في ذلك الليل والنهار؟.

(1) لطفاً انظر كتاب "مصادر مياه الينابيع في العالم" للعلامة الكبير محمد أمين شيخو.

وهل نظرت إلى الشمس وما يأتيك منها من حرارة وضياء وإشعاع والقمر وما هو عليه من نظام تتعرف به إلى السنين والحساب.. والهواء وما فيه من غازات نافعة بنسب معينة لا تستطيع أن تظل بدونها ساعة من نهار؟. من الذي شحن الهواء بهذه الغازات الضرورية للحياة؟. ومن الذي جعل الليل والنهار خلفةً وبهذا القدر المناسب للراحة والحياة؟. من الذي خلق لك البحار وملأها بالماء وجعل ماءَها ملحاً أجاجاً لا يفسد؟. ما هذه الرياح المستمرة في طوافها على سطح الأرض تأتي بالخير وتبشِّر بالمطر وتجدِّد الهواء؟. ما هذه المعادن المودوعة في باطن الأرض ما هذه الأتربة وما هذه الأملاح؟. من الذي ألقى في الأرض من كل زوج اثنين من النبات وبث فيها من كل دابة؟. أليس ذلك كله ضروري للحياة؟. أليس ذلك الممد المربي هو الله؟ وهل فكَّرت بشيء من عنايته بك وعرفت معنى كلمة (**الرَّب**)؟. الذي يربِّيك في هذه الحياة.

وأوجز القول وأنتقل إلى كلمة (**العالمين**).. إن كلمة (**العالمين**) هي جمع عالم والعالم كل شيء من المخلوقات اشترك بعضه مع بعض في الحياة في صفات واحدة ومن جنس واحد.

فالنمل عالم والطير عالم والأسماك في البحار عالم والنباتات عالم والمواشي عالم والإنسان عالم والنجوم السابحات في الفضاء عالم والجراثيم عالم.. حتى أن

عالم الطير يضم عوالم عديدة وكذلك عالم الأسماك يشتمل على أنواع شتى وعوالم مختلفة.

وفي الإنسان عوالم كثيرة من كريات بيض وكريات حمر ولكل من الكريات أنواع وأشكال ووظائف وأعمال وتوالد وتكاثر وغذاء ووسط مناسب للحياة، وفي الإنسان ما فيه من عوالم لا تحصى وما يعلم بها إلا الله ولو أنك دققت وفكرت بعض الشيء لشاهدت ورأيت ولطأطأت نفسك مقرَّةً بجلال الله وعظمته وقدرته ولرأيت أن الله تعالى واسع عليم وأنه سبحانه العزيز الحكيم والرؤوف الرحيم.

وهكذا ففي هذا الكون الخضم عوالم وفي كل شيء عوالم لا يعلم بعددها إلا خالقها وموجدها ولكل عالم من هذه العوالم شرائط للحياة وإمداد خاص بها وأصول للتوالد والتكاثر وأنواع منوَّعة من الأغذية. وعلى سطح الأرض مقادير وأعداد ونسب معينة وقوانين للحياة. قال تعالى: ﴿. . وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[1].

وهذا الرب الممد لهذه العوالم كلها القائم عليها والمتكفل برزقها والممد لها بالحياة هو الله تعالى وحده رب العالمين.

---

[1] سورة الرعد: الآية (٨-٩).

أما كلمة (**الله**) في كلمة (**الحمد لله**) فهي مأخوذة من الإلّه، والإلّه هو الذي يؤول إليه أمر كل ما في الكون من حيث رزقه ومعاشه وإمداده بالحياة وقيامه وتسييره في أعماله ومنحه ما يتطلبه في حياته بما يتناسب وكمال كافة المخلوقات فمن كمال لكمال أوسع وليس بالإمكان أبدع مما كان.. أي ليس بإمكان أحد من البشر أن يبدع مثل هذا الإبداع أبداً. فسبحانك ربي ما أعظم كمالاتك ولا إلّه لي وللكائنات كلها سواك.

فالابن الرشيد العاقل حين ينضج ويكبر يحمد كل ما قام به والده بسن صغره تجاهه من تصرفات على اختلاف وجوهها من عطاء أو منع، شدة أو رحمة، غضب أو رضى، أي يقرّ نفسياً بحسن هذه التصرفات ويحترم تلك المعاملة التي عامله بها أبوه حتى رفع من سويته العلمية والخلقية.

فأنا حينما أرى أن المرض قد زال عني وخلصت منه، وحينما أرجع إلى معالجة الطبيب وعنايته بي حتى خلَّصني مما كنت أشكو منه وشعرت بالصحة قد عادت لي من بعد ألم ومرض أجد في نفسي تقديراً واعترافاً بفضل هذا الطبيب وأرى جميع تصرفاته ومعالجاته إياي مهما كان نوعها إنما كانت حسنة، إذ أن غايته جميعها كانت شفائي وخلاصي مما كان بي، فأرى الخير فيما وصف لي من الأدوية الكريهة المرّة، وأرى الخير في تلك المعالجات الشديدة حتى أرى الخير بما قام به هذا الطبيب من جرحٍ جرحني به وألم أثاره

في بعض نواحي جسمي تبيّن لي الآن عواقب ذلك كله وقد عادت عليَّ بالخير والشفاء والسعادة، وكذلك الطالب حينما يصبح رجلاً وجيهاً في المجتمع ذا منصب رفيع في عمله ومعرفة عالية بين ذويه وعندما يرى شأنه العالي ومكانته السامية التي أصبح عليها هنالك يحمد معلِّمه، أي يرى الخير فيما قام به تجاهه من تصرُّفات مهما كان نوعها ومهما كانت صورتها، حتى أنه ليقرَّ معترفاً في قرارة نفسه بأن ضرب معلِّمه ومعاقبته وحرمانه إياه في بعض الأحيان من الحرية وشدته عليه إنما كانت كلَّها خيراً وهي لا تختلف عنده في شيء عن مدحه ومكافأته وثنائه عليه.

وإطلاق السراح والتضييق والحرمان كلاهما عند هذا الطالب سيَّان في الخير إذ لولاهما لما استقامت نفسه ولما كدَّت وجدّت في سبيل التعليم، وبالتالي لما نالت تلك المنزلة الرفيعة، ولما بلغت ذلك الشأن العالي في المجتمع، فهو يحمد معلمه على ما قام به تجاهه من تصرُّفات لأنها كلها خير وإحسان. وكذلك بالنسبة للابن الرشيد مع أبيه، والمريد الصادق مع مرشده ودليله إلى الله والمؤمن مع رسوله، والإنسان تجاه خالقه ومربيه فهذا الإنسان حينما يرى مثلاً أن هذه الأمراض التي ساقها الله له تعالى في الحياة، وأن الفقر والمصائب والهموم والكروب والشدائد في الحروب إنما كانت سبباً في توبته إلى الله، وخلاص نفسه وتطهيرها مما بها من العلل والأمراض. تراه حينما يشعر

بالصحة النفسية يحمد الله تعالى على ما تفضَّل به عليه. ويرى الخير في جميع تلك المعاملات التي عامله بها تعالى مهما كانت شديدة، ومهما كانت مؤلمة إذ أنه لولاهما لما تطهرت نفسه من الأدران ولما تمحَّصَ ما في قلبه، بل لكان ألمه النفسي ولكانت دناءته وانحطاطه أشد عليه من جميع تلك الشدائد من مرض أو فقر أو خوف وفزع وضيق.

ذاك كله يراه المؤمن في الحياة الدنيا فيحمد الله تعالى عليه في دنياه قبل موته، فإذا كانت الآخرة وكانت الحياة الطيبة وأضحى هذا المؤمن في جنان الخلد يستغرق في النعيم فهنالك يحمد الله تعالى حمداً لا نهاية له حمداً لا يوافي نعم الله ولا يكافئ مزيده، لأن نعمه تعالى لا تتناهى، وكل حمدٍ مهما عظم ففضله تعالى أعظم ونعمته سبحانه أكبر وأكبر. أما الكافر فيحمد الله تعالى في الآخرة، يحمده على أن ساق له في الدنيا ما ساق من شدائد كلها كانت في مصلحته ولخيره ويحمده على أن خلق له النار لأنه يرى أن احتراق جسده بها وشديد إيلامها أهون عليه مما يخالج نفسه ويلازمها من حسرة على ما فرّط في الحياة الدنيا ومن خزي ودناءة وانحطاط تمثل أمامه بسبب أعماله التي قدّمها، فإذا ما صار إلى النار وذاق عذاب حريقها وكان ذلك الألم الجسدي من عذاب الحريق سبباً في غيبته عن آلامه النفسيّة التي لا تطاق، وسبباً في احتجابه عن عاره وخزيه ودناءته وحسراته فهنالك يحمد الله

تعالى.

قال ﷺ: «**إن العَارَ ليلزم المرءَ يوم القيامة حتى يقول يا ربِّ لإرسالُكَ بي إلى النارِ أيسرُ عليَّ ممَّا ألقى وإِنَّه ليعْلَم ما فِيهَا من شِدةِ العذاب**»[1].

وهكذا فأهل الجنة يحمدون الله تعالى، وأهل النار يحمدونه، وكل الخلق يومئذٍ يرون فضل الله تعالى عليهم، وعظيم إحسانه إليهم قال تعالى: ﴿. . .وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

ولا تظننَّ أن معنى كلمة (**الحمد لله**) تقف بنا عند هذا الحدّ الذي بيَّناه فما ذاك من معناها إلا طرف يسير، وهنالك معانٍ تنطوي تحت هذه الكلمة لا يعلمها إلا الله فما من واقع يقع، ولا حادث يحدث ولا حال يحول ولا همّ ولا غم ينزل، ولا مرضٍ أو فقر وشدة تلمّ إلاَّ وهي من الله تعالى فضل ونعمة وإحسان تسوقها وتنزلها يد الرحمن الرحيم، فهو تعالى دائم العناية بالخلق، باسط يده على عباده بالحنان والرحمة يقلبهم من يسر إلى عسر ومن ضيق إلى فرج، ومن فقر إلى غنى، ومن غنى إلى فقر وفاقة، ومن صحة إلى مرض، ومن مرض إلى صحة، يحوِّل من حال إلى حال وكل ذلك منه تعالى تمحيص وتنقية لهذه النفس وكله منه تعالى مداواة وتطهير وتصفية، وكل ذلك

---

[1] الجامع الصغير /٢٠٥٩/ (ك) عن جابر (ح).

[2] سورة يونس: الآية (١٠).

فضل ورحمة وإحسان فلو كشف الغطاء لما اخترت غير ما اختاره لك الله ولرضيت بالواقع. قال تعالى: ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وفي الصبر على ما تكره خير كثير. قال تعالى: ﴿. .وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[2].

فالمؤمن إذا أصابته المصيبة، وحاقت به الشدة صبر واستسلم لأنه يعلم أن يد الحنَّان المنَّان إنما أنزلت به ما أنزلت من شدة، فكيف لا يرضى وكيف لا يستسلم؟. إنه يرضى ويستسلم لأنه يعلم رحمة الله، ويعلم حنان الله ويرى عناية الله، عنايته تعالى التي خلقت ما في الأرض وما في السموات لهذا الإنسان، عنايته تعالى التي سخَّرت الشمس وسخَّرت القمر دائبَيْن، وسخرت الليل والنهار والأنهار والبحار، وخلقت من فواكه وأثمار ونباتات وأزهار وسهول وجبال، ومآكل ومشارب ولذائذ، خلقت كل ذلك وتخلق على الدوام فضلاً ومنَّة ورعاية لهذا الإنسان، إنه يرى تلك العناية الإلَهية المحيطة به، القائمة على هذا الكون كله والمشرفة عليه كله، إنه يرى دوام العناية الإلَهية عليه في الليل والنهار، وفي كل لحظة من اللحظات فلو انقطع

---

(1) سورة البقرة: الآية (٢١٦).

(2) سورة البقرة: الآية (١٥٥-١٥٧).

إمداده تعالى عن العين لما أبصرت وعن الأذن لصمّت وما سمعت، وعن اللسان لتوقّف وما نبس بكلمة، وعن الفكر لزال وما وعى، وعن القلب لسكت وما نبض نبضة، يرى المؤمن عناية الله تعالى به ظاهراً وباطناً فيستسلم لتصرُّفاته تعالى ويعلم أنها كلها خير وفضل ورحمة.

ويحمده تعالى على كل حال. على أن كلمة (**الحمد لله رب العالمين**) ليست فيما وردت عليه الآن في سورة الفاتحة اعترافاً من المصلِّي يعترف به، وإقراراً يقرّه، بل إنما هي إعلام من رسول الله ﷺ.

فهذه الذات العليّة التي خلقتك وأوجدتك، والتي تشرف على شؤونك وتربيك، هذه الذات العليَّة التي تسيِّر جميع الكائنات والتي يؤول إليها أمر كل شيء فتشاهد طرفاً منها بمعيته ﷺ في هذه الكلمة أن الحمد لله رب العالمين.

إنها تُعرِّفك أن رب العالمين الذي شملت تربيته كل شيء، المسيِّر الذي بيده كل شيء وإليه تؤول أمور كل شيء هذا الرب الممدُّ والإلّه المسيِّر يُحمدُ على كل ما تراه وكل ما يجري في هذا الكون من تسيير وتصرفات.. في كل ركعة، وفي كل صلاة، لا بل في كل يوم وبما يقارب الأربعين مرة يتلو عليك رسول الله ﷺ عن لسان الله كلمة (**الحمد لله رب العالمين**) لتستقر هذه الكلمة في نفسك ولتتبع معناها ولتحمده تعالى حقاً، فإذا أنت حمدته وعرفت حنانه فقد توثقت الصلة بينك وبينه وهنالك تدخل في النعيم، النعيم النفسي

وتتسامى نفسك وترقى من حال إلى حالٍ أعلى، والصلاة معراج المؤمن، وتلك هي الغاية من الصلاة، ومن لم يقرأ سورة الفاتحة ويفهم كلمة (**الحمد**) ومن لم يتعرَّف إلى كلمة (**الحمد لله**) ومن لم يفقه معانيها ويدخل بها على الله فلا صلاة له وما هو من الصلاة في شيء.

هذا وقد يعرض لك سؤال من الأسئلة فتقول: تبين لي مما سبق من شرح وبيان أنه لا يقع واقع في هذا الكون إلا وقد أذن به الله وشاء وأنه ما من حادث يحدث إلا انطوى على فضل ورحمة وإحسان، فكيف نفسر على ضوء ما عرضتموه جريمة القتل تقع على القتيل فتذهب بحياته وتحرم زوجه وبنيه من عطفه ورعايته وتسبب للقاتل الخزي والعار وتزج به في السجون بالدنيا، وتلقي به غداً في النار. وكذلك السرقة والزنا وسائر أنواع الجرائم والتعديات، وهل وقوع ذلك كله وحدوثه تشمله كلمة (**الحمد لله رب العالمين**)؟. وهل نستطيع أن نعدَّ ذلك فضلاً ورحمة وعناية من الله بكل من الطرفين القاتل والمقتول، والسارق والمسروق ماله، والزانية والزاني، والمعتدي والمعتدى عليه، وهل كل ذلك يُحمدُ تعالى عليه؟.

وجواباً على هذا السؤال وبوجه الاختصار أقول: مادام كل واقع في هذا الكون لا يقع إلا بعلم الله ومن بعد إذنه، فلا شك أن كلمة (**الحمدُ لله**) تشمل وبدون استثناء كل حادث وواقع، وله الحمد تعالى على كل حال.

ونفصِّل ولا نطيل فنقول: الإنسان في هذه الحياة أحد رجلين:

كافر ومؤمن، حيّ وميِّت، أعمى وبصير، أصم وسميع، فإذا أعرض الإنسان عن آيات ربِّه ولم يسلك طريق الإيمان التي شرعها الله تعالى وبيَّنها لعباده أضحت نفسه في ظلمة وعمى. فإذا ما رأى شهوة من الشهوات الخبيثة استحبَّها واستهواها إذ لا نور له من الله يرى به حقيقتها وما تزال هذه الشهوات تعتلج في نفسه ويستفحل أمرها حيناً بعد حين حتى تملك عليه مشاعره وتستولي على قلبه وإنه ليصمم عليها ويعزم على فعلها وما مثل هذا الإنسان والحالة هذه إلا كمثل امرئ سائر في وادٍ سحيق اعترضته صخرة عظيمة سدَّت عليه طريقه ذلك هو مثل الإنسان، هذا بالنسبة لشهوته إنها الصخرة العظيمة سدَّت عليه طريق الإيمان، فمهما ذكرته بآيات الله لا يتذكر، ومهما أوردت له من العبر والمواعظ، لا يتعظ ولا يعتبر ومهما حذّرته من العواقب وأنذرته بسوء المصير لا يحذر ولا يخاف ولابدَّ قبل كل شيء من إزالة هذه الصخرة المانعة التي تعترض طريقه.. فإن أنت أزلتها فقد انفتح الطريق إلى الإيمان وأمكن المضي والسير. ولذلك ورحمة من الله تعالى بهذا الإنسان الذي أصبح سجيناً وراء شهوته وقد انسدَّ عليه بسببها طريق الإيمان، أنه يطلقه فيقع فيما هو مصمِّم عليه ومشتهيه، وهنالك تخلص النفس مما كان مسيطراً عليها وتخلو ساحتها مما كان شاغلاً لها ومالكاً عليها

مشاعرها وتزول هذه الصخرة التي كانت قد سدَّت عليها طريقها، ولابدَّ للنفس حتى تسير في طريق الإيمان والحالة هذه من دافع يدفعها وسائق يسوقها، يسلِّط الله تعالى على هذا الإنسان بعد وقوعه في شهوته صنوفاً من الشدائد والمصائب والبلاء فإما المرض، وإما الفقر والفاقة وإما السجن والعذاب والتنكيل، وإما العرض على القتل والإعدام، وكل امرئ يسوق الله تعالى له الدواء المناسب بحسب حاله وبحسب شهوته وجرمه، ويشتد البلاء على هذا الإنسان المجرم ويزداد في الشدة، وما يزال به يضيِّق عليه ويزيد في الضغط حتى تضيق عليه الأرض بما رحُبت، وتضيق عليه نفسه فلا يجد ملجأً ولا منجاً من الله إلا إليه. وهنالك تستسلم النفس إلى الله وتعلم أن ما أصابها من الشدة والبلاء إن هو إلا بما كسبت يداها وبسبب ما وقعت فيه من إجرام، وتَصْدُقْ وما أسرع ما تنكشف لها الحقيقة أن لا إلَه إلا الله وأن الفعل كله بيد الله، وأن الشدة التي حاقت بها إن هي إلا محض رحمة وفضل وإحسان من الله فتشكر الله على البلاء، وتشكره على ما ساق لها من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، وترى أن الجريمة التي نفذتها وأن البلاء الذي حلَّ بها من بعد، والعقوبة التي ذاقتها، كلها عوامل ووسائل ساعدتها على السير في طريق الإيمان. ولو أنها حبست وراء الشهوة ولو أنها لم يُسلَّط عليها من بعد ذلك البلاء والشدّة، لظلّت محرومة ممنوعة من الخير والحمد لله

على ما أصابها وله الحمدُ على كل حال ولا يحمد على مكروه سواه.

ذلك هو الحال النفسي للقاتل عندما تنفذ فيه عقوبة الإعدام، وحال السارق حينما تقطع يده ويذوق مزيد الآلام الممضّة، ذلك هو حاله إن رجع للتفكير حال البلاء والشدّة، إنه ينتقل من الكفر إلى الإيمان، ومن الموت إلى الحياة فيغدو سميعاً بصيراً ويموت وهو يشكر الله ويحمده، وفي الحديث الشريف: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**»[1].

أما إذا خرجت الشهوة، وحاق من بعدها البلاء والشدّة وظل هذا التفكير خامداً فلابدَّ والحالة هذه من شدَّة أعظم وبلاء أكبر.

قال تعالى: ﴿. .وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِم. .﴾[2].

وإن لم تفد هذه العلاجات كلها فالمصير حتماً إلى النار ونعوذ بالله من مصير أهل النار.

وحيث أني شرحت لك من قبل ما يحلُّ بأهل الجرائم في النار يوم القيامة وبيَّنت لك أنهم يومئذٍ يرتمون بالنار ليخلصوا من خزيهم وعارهم وإنهم إذ ذاك يحمدون الله تعالى على ما يداويهم به فيها فلا حاجة هنا للتفصيل عن أحوالهم بها[3].

---

(1) مسند الإمام أحمد ج٣ ص١١٦.

(2) سورة الرعد: الآية (٣١).

(3) انظر كتاب تأويل الأمين (الجزء الأول). بحث حقيقة النار.

تلك هي رحمة الله تعالى ونعمته وفضله ومنّته على المعرضين من بني الإنسان تنبت الشهوة في أنفسهم بسبب إعراضهم. ويزيِّن الله تعالى لهم أعمالهم فيقتل القاتل، ويسرق السارق، ويزني الزاني، ويجرم المجرم ثم تكون الشدَّة والمداواة وتخلص تلك الأنفس إن هي رجعت إلى الله ممَّا كان بها من جرثوم الشهوات وتدخل في حظيرة الإيمان، وتحمد الله على ما عالجها به من علاجات. أما بالنسبة للمقتول وزوجه وبنيه، والمسروق ماله، والمعتدى عليه فلا تظننَّ أن الذي اعتلجت في نفسه جريمة القتل أو السرقة أو الزنا والتعدي يستطيع أن يسرق أو يعتدي على أي إنسان أراد. فالله سبحانه هو المهيمن المشرف، وهو الحكيم العليم. قال تعالى: ﴿..مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(١)].

فإذا انتهى أجل المرء وكان من الحكمة والخير أن يموت هذا الذي انتهى أجله قتلاً وبهذه الصورة الرهيبة ساق الله تعالى القاتل إليه، وجعل تنفيذ جريمته عليه، وهنالك تكون الشدَّة التي تقع على المقتول ساعتئذٍ دواءً لنفسه وعلاجاً، إذ أنه لا بدَّ أن يكون من قبل قاتلاً فنال جزاءه وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها، أو أن له من الأعمال السابقة ما اقتضى أن يكون موته بهذه الصورة، فلعلَّه إذا هو التجأ وأناب تطهر نفسه وتخلص مما بها من أدران وذلك ما كنا

(١) سورة هود: الآية (٥٦).

آنفاً فصَّلناه وبيّناه.

وكذلك الأمر بالنسبة للمسروق ماله، والمعتدى عليه، لابدَّ أن كلاًّ منهما سبق أن ظلم فأعاد الله تعالى عمله عليه قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].. حتى أن الزاني لا يقع عمله وعدوانه ولا ينفذ شهوته إلاَّ على امرأة خبثت نفسها وتطلَّبتْ هي أيضاً الفاحشة.

قال تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وهكذا فهذه الذات العليّة قائمة على الكون بالقسط وبيدها نواصي الخلق تسيّرها بالحق وما من واقع يقع إلاَّ من بعد إذنه، ولله الحمد على كل ما يسوقه لعباده.. وإن من شيء عنده إلاَّ بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

فإذا أردت أن لا يعتدي معتدٍ عليك فاستقم كما أُمرت، وإن أنت شذذت وبغيت فارتقب وقوع البلاء، والشدَّة من بعد الرخاء والله لا يغير ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، ومن زكّى نفسه وسلك بها طريق الإيمان فقد أفلح وفاز، ومن أعرض عن طريق الإيمان، ودسَّ نفسه فقد خاب وخسر، وما الحياة الدنيا إلاَّ متاع الغرور.

---

(1) سورة الأنعام: الآية (١٢٩).

(2) سورة النور: الآية (٣).

استنباط أوقات الصلاة من القرآن الكريم وكيفيتها

قال تعالى: ﴿ . . مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ . . ﴾[1].

هذا الكتاب الذي يُحمد عليه تعالى لأنه يهدي الإنسان إلى سُبل السعادة مبيِّناً له ماذا يجب أن يختار حتى يسلم دنيا وآخرة.

ولكن من ذا الذي يفهم ويشاهد هذه القوانين.. من يفهم المراد الإلّهي من كلامه تعالى؟.

حتماً القريب منه تعالى، وأقرب الخلْق من الله هو رسول الله ﷺ فهو أفهمهم لكلامه وأوضحهم بياناً لمراده تعالى، ولذا خاطبه الله قائلاً في سورة (ق): ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾: أي: يا قريب، إذ بقربه العظيم من خالقه تشرَّب منه تعالى هذه المعاني العليّة فكان أهلاً لتلقي تلك الدلالة العالية التي لا يستطيع أي إنسان أن يأتي بكلمة منها.

لما أنكر الكفَّار رسالته ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً . . ﴾.. أمره تعالى بالرد عليهم: ﴿ . . قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[2].

فرسول الله ﷺ يقول: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: مثلي، هل ثمة أحد يفهم مثلي.. فهمي وبياني وعلمي به ألا يدل على أنِّي رسوله!!.. هذا دليل على

---

[1] سورة الأنعام: الآية (٣٨).
[2] سورة الرعد: الآية (٤٣).

رسالتي. فبقربه العظيم ﷺ فَهِمَ مراد الله هذا الفهم العالي العظيم.. وهذا قانون: كذلك كلما كان الإنسان قريباً من الله ورسوله كلما اقترب فهماً للمراد الإلهي وأدرك مما في القرآن من أسرار وحكم وأحكام منطوية في آياته تعالى.

أوقات الصلوات الخمس في القرآن الكريم

الصلاة: هي صلة النفس بربِّها وارتباطها الوثيق بنور خالقها بارتباطها برسول الله الكريم ﷺ فهي حقيقة تسبيح من رسول الله ﷺ لهذه النفس "المصلِّية المتَّصلة" بحمد الله بمشاهدة أسمائه الحسنى وعظيم جلاله وبحار أنواره تعالى وجماله. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾[1].

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾: يا محمد ﷺ، ليقولوا ما شاؤوا. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: عرِّفهم بأني أُحْمد على ما أسوق لعبادي، أرِهِمْ فضلي وحناني وخيراتي وتسييري الخيِّر، هذه سورة الفاتحة ومشروعيتها.

بكل ركعة يقول لك رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.. **بإسم الله:** يا عبد الله أبلِّغك. **الحمد لله:** أنه يُحمد على كل ما يسوقه لعباده، سبِّح نفوس الذين آمنوا معك.

فكلمة **(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)** إنما هي خطاب لك أيها المصلِّي من رسول الله ﷺ يُخاطبك بها معرِّفاً ومبيِّناً أنه إنما يتلو عليك ما يتلوه بإسم الله وعن لسان الله وهو بيان لك من الله، وينصت هذا المصلِّي لرسول الله ﷺ

[1] سورة طه: الآية (١٣٠).

ويصغي إليه وتتفتَّح مسامع نفسه لما سيتلوه عليه، فإذا به ﷺ يتلو كلام الله قائلاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.. فتصدِّق رسول الله وتقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: بمعيَّتك يا رسول الله ندخل على الله مطيعين.

متى سبِّح!. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: الصبح.. وهذه صلاة الفجر. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾: العصر.. وهذه صلاة العصر. ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء. ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾: الظهر. ﴿لَعَلَّكَ﴾: بهذا التسبيح لهم بحمد ربك وبما تصل إليه من إيمان جماعتك. ﴿تَرْضَى﴾: إن آمنوا هذا الإيمان وقالوا الحمد لله: إذ أن رسول الله ﷺ بحنانه وعطفه كاد يُهلك نفسه رحمة وحناناً عليهم فإذا رآهم قد دخلوا على الله ونالوا فضل الله عندها يرضى.

وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[(١)].

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ..﴾[(٢)].

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾: الطرف الأول عندما تميل إلى الزوال.. الطرف الثاني عندما تصبح الشمس أقرب إلى الغروب منها إلى الزوال: ظهراً وعصراً. ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾: من الغروب للشفق الأبيض.. الغروب: صلاة المغرب

---

(١) سورة الروم: الآية (١٧-١٨).

(٢) سورة هود: الآية (١١٤).

للشفق الأبيض عندما يزول الشفق الأحمر بالسماء ويصبح اللون الأبيض بالغرب مثل اللون الأبيض بالشرق عندها دخل وقت العشاء: وهذه صلاة العشاء. والثالثة من الفجر للشروق: مغرب، عشاء، صبح. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ. . ﴾: الصلاة تجر لفعل المعروف.

فالنهار يبدأ من شروق الشمس ولما تصل لكبد السماء "منتصف السماء (خط الزوال)" وتبدأ بالميل إلى الزوال هنا تشرع صلاة الظهر.. يؤذن معلناً حلول موعد صلاة الظهر.. ينتهي الأذان حيث تكون الشمس قد مالت عن خط الزوال وهنا تبدأ صلاة الظهر وهذا هو الطرف الأول للنهار.

فكلمة (**الطرف**) من التطرُّف، نقول: تطرَّف فلان في مسكنه، أي: ابتعد. فالشمس تبدأ بالابتعاد عن خط الزوال والنهار يتطرَّف منقضياً حتى حلول طرفه الثاني عندما تصبح الشمس أقرب إلى الغروب منها إلى وقت الزوال ويكون الطرف الثاني للنهار قد حل، وهنالك يؤذِّن المؤذِّن مُعلناً شروع صلاة العصر، وتسمى هذه المرحلة "من بعد حلول العصر" مرحلة الغروب وهي التي تصبح الشمس فيها أقرب للغروب منه لخط الزوال، وهي تمتد حتى غروب الشمس.

ففي سورة طه: عبَّر تعالى بكلمة (**أَطْرَافَ النَّهَارِ**) عن مدى جواز إقامة صلاة الظهر، إذ يمكن للمصلِّي أن يصلِّيها من أول انحراف الشمس عن كبد

السماء حتى وصولها لوقت العصر. أما قبل العصر فكان النهار في مسيرة التطرُّف للانقضاء والشمس في طور المَيْل للزوال وهذا ما قصد به تعالى بكلمة (**أَطْرَافَ النَّهَارِ**).

أما سورة هود فتبيِّن بكلمة (**طَرَفِي النَّهَارِ**) حلول موعد صلاة الظهر وصلاة العصر.

الطرف الأول: حيث بداية انحراف الشمس عن الزوال والشمس في كبد السماء بدأت تميل باتجاه الغرب، كمسافر بدأ بالاتجاه لبلد ما، فقد بدأ يزول عن بلده.

والطرف الأخير: حيث نهاية انحراف الشمس عن الزوال وهي أقرب للغروب منها لوقت الزوال كما قدَّمنا.

وعبَّر تعالى بسورة طه بكلمة (**قَبْلَ غُرُوبِهَا**) عن فترة جواز صلاة العصر وهي المرحلة ما بين عصر اليوم حتى غروب الشمس خلف خط الأفق وغيابها عن الأنظار؛ ومن بداية تلك المدة تبدأ إقامة صلاة العصر. وفي سورة هود (١١٤): ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ.. ﴾.

إذاً فأوقات الصلاة فهمها رسول الله ﷺ من كلام الله ودلَّ أصحابه عليها وصلاَّها، وفي حديثه الشريف ﷺ: «**علَّمني ربي فأحسن تعليمي**».

وهذه سنة الله للخلْق أجمعين من لدن سيدنا آدم ﷺ حتى انتهاء الدوران.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ..﴾[٢].

هذا هو القانون الإلَهي الذي فيه تتحقَّق سعادة الإنسان على مر العصور والأجيال من بداية الخلْق لانتهاء الدوران ﴿..فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾[٣].

وكل ما ورد عن أن الله أمر رسوله ليلة الإسراء بخمسين صلاة، ثم طلب التخفيف ﷺ بناءً على تعليم سيدنا موسى ﷺ له فهي دسوس إسرائيلية واضحة وهي من تلك القصص التي تنافي حكمة الله وعلمه وتخالف أسماءه الحسنى فلا أصل لها، إذ ليس فيها ذرَّة من منطق، ولا يُكلِّف الله نفساً إلاَّ وسعها.. ليس بوسع أحد أن يصلِّي ٥٠ صلاة باليوم والليلة وهذا فوق الطاقة البشرية وجعلوا فيها سيدنا موسى ﷺ أعلم من الرسول ﷺ، بل من الله تعالى، إذ أنه أمر تعالى على حدِّ زعمهم وحكم مع أنه تعالى ﴿..لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ..﴾[٤] ، فردَّ سيدنا

---

[١] سورة النساء: الآية (٢٦).

[٢] سورة الشورى: الآية (١٣).

[٣] سورة الحج : الآية (٣٤).

[٤] سورة الرعد: الآية (٤١).

موسى ﷺ حكم الله بأحسن منه، فهل المخلوق أعلم من الخالق؟. حاشا وكلا وتعالى الله عن هذا الزعم علوّاً كبيراً، كما تدل على أن الله لا يعرف دلالة عباده وطريق سعادتهم فهو ليس بعليم ولا بحكيم ولا يريد الله بالإنسان اليسر، بل يريد له العسر.. وحاشاه تعالى، فلله الأسماء الحسنى وهو الذي يعلم طريق سعادة عباده، وكل الخلْق بما فيهم الأنبياء والرسل بحاجة لعلمه تعالى ويستقون منه الحكمة. ﴿..وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1].

فالصلاة في القرآن الكريم وبكل الكتب السماوية هي ذاتها لم تتبدل ولم تتغير، خمس صلوات: محطات تقوية لصلة النفس بربِّها.. كلما ضعفت يعود الإنسان ليقوِّي هذه الصلة ويمتِّنها. وحتى أن كيفية الصلاة أشار إليها القرآن الكريم أيضاً، ولكن من ذا الذي يدركها إلاَّ إنسان قريب من الله ورسوله حق القرب.

قال تعالى: ﴿..إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾: هذا هو السجود. ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾: حق واقع. ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾: ومن هنا أخذ الرسول الكريم السجدتين في الصلاة. ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ۞ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾: أي اسم كان: قهَّار، جبَّار، منتقم، كلها أسماء حسنى.. كلها ضمن الرحمة. ﴿أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾: في النهار. ﴿وَلاَ

---

[1] سورة يوسف: الآية (٧٦).

تُخَافِتْ بِهَا﴾: في الليل. ﴿وابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: من هنا أخذ ﷺ قراءة الفاتحة في الصلاة. ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[1]: تكبيرات الانتقال في الصلاة.

[1] سورة الإسراء: الآية (١٠٧-١١١).

الصَّلاة

ثاني المَدَارِس العُليا لِلتَّقوى

لايمكن لذي لُبٍّ أن يعتبر دعوة الدول الراقية لأبنائها أن تعالوا صبيحة كل يوم إلى هذا البناء ، بناء أيَّة مدرسة أنشأتها ، عودوا بالوظائف تقيَّدوا بما يكلِّفكم به أساتذتكم ومعلِّموكم من حفظٍ ووظائف ، مجرَّد أمر قسري ! .. لامعنى ولا مردود له ولا مفهوم .. لا .. لا .. ذلك مثل من لايفقهون الحكمة العليَّة من أوامر الله القدسية فيظنونها مجرد أمر تعبُّدي لامعنى ولامردود لها ولامفهوم .. لا .. لا ..

إنَّ المدارس بالدول الراقية ما قامت بذلك إلاَّ لتمحو الجهل وتغذِّيهم بالعلم محلَّه ، إذ تعلِّمهم من السلوكيات العامة أصولها ومن الآداب والأخلاق ركائزها.

إنَّها تخلِّقهم لتسمو بهم لقمم ما يصبو إليه كلُّ مجتمع راقٍ يترفَّع عن مستويات الجهل والانحطاط الخُلُقي والسلوكي . وما من أب عاقل بصير إلاَّ ويفرض على ابنه الالتزام بتلك المدرسة والتقيُّد بأوامرها والامتثال بالطاعة لمعلِّميها ليرقى ابنه لأرفع المستويات وليعلوَ قدره مستقبلاً ، وذلك خير له من مجرَّد الهناء في البيت بيت الحرية والدلال والرفاهية ؛ وإن أبقاه بهذه الحرية فقد رضي له بذلك الجهل والعمى : ذلك مثل الصلوات الخمس في حقيقتها فهي هدًى وعلم و طهارة كنهر بباب أحدكم يغتسل منه خمساً فهي سعادة و نور ، بها السمو كله وبها الإنسانية الحقيقية بأجْمُعها.

الناشر

